﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٤٠﴾

[الزخرف: 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الآيـةُ مِـن تمام وصـفِ العـاشي عن ذِكْرِ الله

لَمّا كانَ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾ هو أصل مقطعٍ مِن المعنى امتدَّ إلى آخِر قولِه تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾، وكانَ تعالى قد وصفَهم بالعشا؛ وصفَهُم في هذه الآية بالصَّمَم والعمَى، وما أحْسَنَ التَّرتيبَ! وإذا كان الأعمى لن يصل إليه ضوءٌ؛ فالأصمُّ لن يصل إليه صوتٌ، فتلك عاهة في العين، وهذه عاهةٌ في الأُذُن، فهذه الآيةُ امتدادٌ لمجموعة الآياتِ المُتعلِّقة بالَّذي يعشو عن ذِكْرِ الرَّحمن[1].

ولمّا أنبأتِ الآياتُ بأنَّ مَن يدعوهم رسولُ اللّهِ محمَّدٌ ﷺ قومٌ قد توغَّلوا في الضَّلالِ، ورسخوا فيه، وتمكَّنَ فيهم، فقد عشوا عن ذِكْرِ الرَّحمن، وقيَّض اللّه لكلِّ واحدٍ منهم شيطانًا، مِن شأنِه أن يُثبِّتَه على ما هو فيه مِن باطلٍ وضلالٍ وعنادٍ وغفلةٍ وكُفْر؛ صرَّحَتْ هذه الآيةُ بما يكشِفُ عن ذلك تمام الكَشْفِ، فبيَّنتْ أنَّهم صمٌّ عميٌ؛ أحاطَ بهم الضَّلالُ إحاطةً لا يكادون ينفكّون عنها بحالٍ مِن الأحوالِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُـؤْيِـسُ نبيَّه منهم؛ ليُسَرِّيَ عنه

يقول تعالى مُسلِّيًا نبيَّه محمَّدًا ﷺ لاجتهاده في دعاء قومه إلى الإيمان، مع ازديادهم في التَّعامي عن الحقِّ والطُّغْيانِ والضَّلالِ والعُتوِّ والإعراضِ: أفأنتَ يا محمَّدُ تقدرُ أن تُسمع هؤلاء الكفّار الَّذين هم كالصُّمِّ والعُمْي، الَّذين لم ينتفعوا بحواسِّهم الانتفاعَ الَّذي يُجري

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 212، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 378.

خلاصهم مِن عذاب الله، ومَن كان في ضلالٍ واضحٍ جدًّا، ليس لكَ ذلك، فلا يَضِقْ صدرُك؛ إنْ أصرّوا على الكفرِ، واستمرّوا عليه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستفهام في: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾:

تعِب رسولُنا مِن قومه؛ فشغَله اللـه، وأراحَـه بشريفِ خطابِه

بنَى القرآنُ قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ على الاستفهام بالهمزة، وهو لإنكار أن يكونَ حرصُ الرَّسول ﷺ على هُداهُم ناجِعًا فيهم؛ إذا كان الله قدَّرَ ضلالَهم، فأوجد أسبابَه، كما قال تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: 37]، وفيه مع الإنكار معنى التَّعجيب مِن حاله معهم، ولَمّا كانَت الهمزةُ داخلةً على: (أنت)؛ كان المقصودُ بالإنكار هو الفاعلَ[2]، والاستفهامُ محضٌ، معناهُ التَّنْبيهُ، وإنَّما نُبِّه ﷺ بالاستفهام؛ لكمالِ استغراقه في هَمِّ دعوتهم وهدايتهم ونجاتهم، ففيه كلُّ مدحٍ له مِن ربِّه، وكلُّ ثناءٍ عليه مِنه.

بلاغةُ التَّعبير بالفاء في: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾:

مَوْقِعُ مِثْلِ هذهِ الفاءِ سَخِيٌّ جِدًّا

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾: معناها السَّببيَّةُ والتَّفْريعُ والأبَرُّ بشدَّة الإنكار، وقوَّته بالتَّمثيل: أن يكونَ المُسبَّبُ المُرَتَّبُ عنه مجموعَ الآياتِ الَّتي قبلَ هذه الآية؛ بدءًا مِن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾؛ فإنَّ ذلكَ المُرتَّبَ عنه يفيدُ توغُّلَهُم في الضَّلالة، وعُسْرَ انفكاكهم عنها؛ مِمّا جعَل القرآن ينتقلُ منه إلى التَّهوينِ على النَّبيِّ ﷺ ما يُلاقيه مِن الكَدِّ والتَّحرُّقِ عليهم، في تصميمهم على الكفرِ والغيِّ، وفيه إيماءٌ إلى تأييسه مِن اهتداء أكثرِهم.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 18.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 18، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 88، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 216.

نكتةُ تقديم الضَّمير (أنت):

مَـصَـبُّ الإنـكـارِ مَحلُّ بالِغِ المدحِ والثَّناءِ

دخولُ الإنكار على المبتدأ (أنت)، وهو الفاعل في المعنى في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ﴾، يعني أنَّ الإنكار مُنصبٌّ عليه، وأنَّ الفعل الذي هو إسماع الصُّمِّ فعلٌ يُمكن أن يكون، ثم هو لا يكون إلّا مِن اللّه، وهذا هو معنى القَصْرِ الَّذي ذكَر العلماءُ أنَّ هذا الطَّريق مِن البناء يفيدُه، وهو قصر مؤكَّد، وقصرُ قلبٍ، أي: أنتَ لا تُسمعهم، ولا تهديهم، بل اللّهُ يُسمعهم، ويهديهم؛ إن شاءَ، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: 99]، أي: أأنتَ خصوصًا قد أوتِيتَ أن تُسمع الصُّمَّ؟[1].

بلاغة التَّمثيل في الآية:

التَّمْثيلُ المُرَكَّبُ هـــو الأبـلـــغُ والأسْخَى دلالةً

جَرَى المعنى في الآية على طريقة التَّمثيل، وأنَّ مَن ادَّعى أمرًا صعبًا لا يقدرُ عليه؛ يكونُ بمنزلة مَن يدَّعِي هذه المستحيلات، فليس إسماعُ الصُّمِّ مِمّا يدَّعيه أحدٌ، فيكون ذلك للإنكار، وإنَّما المعنى فيه التَّمثيلُ والتَّشبيهُ، وأن يُنزَّلَ الذي يَظُنُّ بهم أنَّهم يسمعون، أو أنَّه يستطيعُ إسماعَهُم، منزلةَ مَن يرى أنَّه يُسمع الصُّمَّ، ويَهدي العمي، ومن كان في ضلال مبين، وأنْ يُجعَل في ظنِّه أنَّه يستطيعُ إسماعهم بمثابة مَن يظنُّ أنَّه قد أوتِي قدرةً على إسماعِ الصُّمِّ وهدايةِ العُمْي والكائن في ضلالٍ مبين، وبلاغة التَّمثيلِ تظهر في تصويرِ جهد النَّبيِّ ﷺ في دعوته إيّاهُم إلى الخير والهدى، فقد كان ﷺ شديدَ الحرص على هداية قومه، شديدَ الحُبِّ لهم، شديدَ الإرادة لإقبالهم، يحزن لصدودهم، ويأسف على إدبارهم، والغرضُ مِن التَّمثيلِ أيضًا: التَّخفيفُ على النَّبيِّ ﷺ فيما يُقاسِي مِن الكرب في المبالغة في إبلاغهم؛ حرصًا على إقبالهم، والغَمِّ مِن إعراضهم[2]، والتَّعبيرُ بـ: ﴿تُسْمِعُ﴾؛ لمناسبة ﴿ٱلصُّمَّ﴾، وبـ: ﴿تَهْدِى﴾؛

(1) عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص: 120، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 216، ود: محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 378.

(2) عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص: 120 - 121، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 30، ود: محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 378.

لمناسبة: ﴿ٱلْعُمْىَ﴾، والمُرادُ بالهدايةِ الإيصالُ إلى المطلوبِ بالفِعْلِ، فلا يُنافي قدرته ﷻ على الهداية بمعنى الدَّلالة على ما يوَصِّلُ إلى البُغْيَةِ[1]، والصُّمُّ والعُمْيُ كلٌّ منهما على حقيقته، وإنَّما المجازُ في مجموعِ إسماعِ الصُّمِّ وهدايةِ العُمي، فذلك مستعار لحالةِ إبلاغه ﷺ في دعوتهم إلى الهدى، واجتهاده العظيم في تحصيل الإيمان لهم، والإنكارُ على المجاز أبلغُ، والغرضُ منه أمكنُ في نفسه ﷻ ويتْبَعُ هذا المجازَ المُركَّبَ فَهْمُ أنَّ أهلَ الكفر الَّذين لم يستجيبوا لرسول الله كالصُّمِّ، فلا يُمكنُه إسماعهم، وكالعُمْي الحيارى، فلا يُمكنه هدايتُهم، وإنَّما ذلك مِن شأنِ الله الملك الحقِّ سبحانه، ويجوزُ جعْلُ المجاز بالاستعارة مفردًا في: ﴿ٱلصُّمَّ﴾ - ﴿ٱلْعُمْىَ﴾ على الاستقلال؛ إذ لا يجوزُ الجمعُ بين المجاز المفرد والمجاز المركب هنا، والمعنى على الاستعارة المفردة: أنَّهم "بلغوا في النُّفْرة عنك وعن دينك إلى حيثُ إذا أسمعتهم القرآن؛ كانوا كالأصمِّ، وإذا أريتهم المعجزات؛ كانوا كالأعمى"[2].

دلالةُ المضارعةِ في الفعلَين ﴿تُسْمِعُ﴾، و﴿تَهْدِى﴾:

الرَّسولُ في حالِ الخطابِ وبعدَه مُقْبِلٌ على قومِه أيضًا

نظَم القرآنُ معنَى كلٍّ مِن الإسماعِ والهدايةِ فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾؛ تصويرًا لشدَّة حرص الرَّسول الكريم ﷺ على هداية قومه، بتجدُّد حدوثِ الإسماع والهداية الَّتي هيَ هداية إرشاد، على جهة التَّكرار والاستمرار، فلم ييأس، ولم يكلَّ، ولم يملَّ، وتصويرًا لعراقة قومه في الضَّلالِ؛ لأنَّهم لم يتأثَّروا بشيء مِمّا قالَه لهُم.

نكتةُ تقديمِ الإسماع على الهداية:

قدَّمَ القرآنُ جملة: ﴿تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ على جملة: ﴿تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾؛

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 324.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 212 - 213، وقال بهذا المجاز المفرد أبو حيان أيضًا في تفسيره: البحر المحيط: 8/ 18.

للعنايةِ والاهتمامِ، ووجهُ ذلكَ: أنَّ حالَ رسولِ اللَّه محمَّدٍ ﷺ معَ قومِه، مِن دعوتِهم إلى الإيمانِ يتَمثَّلُ في إسماعِهم شيئًا مِن القرآنِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 6]، ثمَّ إنَّ التَّفاوُتَ بينَ النَّاسِ على العمومِ لا يُعْتَدُّ به، فيَكادونَ يَستوونَ فيه، وأمّا التَّفاوتُ بينهم في البَصَرِ؛ فمُعتَدٌّ به؛ لاتِّساعِه وكثرتِه، وقال الشَّيخُ أبو موسى: "وقدَّم: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ على: ﴿تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾؛ ليُتمِّمَ معنى: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾؛ لأنَّ: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ رأسُ الآيةِ الرّاجِعُ إلى رأسِ الآيةِ السّابقة، والأولى في العَشا الَّذي هو أخو العمَى، وهذه في الصَّمم، وبذلك يستوفي الكلامُ صمَمَه مع عماهُ، ولأنَّ ذِكْر الرَّحمن الأصلُ فيه السَّماعُ؛ ولذلك يُقدَّمُ ما يدلُّ على افتقادِه في مِثْل هذا السِّياقِ، كما في قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: 18]"[1].

السَّماعُ ألصقُ بسياقِ ذِكْرِ الرَّحمنِ الَّذي هو القرآنُ

علَّةُ ذِكْرِ هدايةِ العُمْي:

لَمّا كانت الآيةُ قد سيقَتْ؛ للتَّخْفيفِ عن الرَّسول ﷺ فيما يُقاسِي، ويُعاني مِن صدِّ قومِه الكُفّارِ له، ورفْضِهم لقرآنِه ودعوتِه، وانصرافِهم عنه، وكانت قد سلكت في تقرير ذلك مسلك الإنكار بالاستفهام، الَّذي هو أقوى مِن الإنكار بالنَّفي الصَّريح؛ أبلَغَتْ في بيانِ عظيمِ جهده، وعِظَم ضلالِ قومِه بذِكْرِ معنى: ﴿أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ مِن بعدِ ذِكْر ما هو الأصلُ في بيانِ ذلك بمعنَى: ﴿تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾، وعلى مستوى حركة المعنى في السِّياقِ تناسَبَ معنى هذه الجملةِ وموقِعُه مع قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

معنى هذه الجملة نِتاجُ حركة المعنى على مستوى الآيةِ وسياقِها

والرّازيُّ بيَّن هذا، فذكَر أنَّ الإنسانَ في أوَّل اشتغاله بطلبِ الدُّنْيا يكونُ كمَن حصَل بعينِه رمَدٌ ضعيفٌ، ثمَّ كلَّما كان اشتغالُه بتلك الأعمال

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 378.

أكثرَ؛ كان مَيْلُه إلى الجُسْمانيّاتِ أشدَّ، وإعراضُه عن الرّوحانيّات أكملَ؛ لِما ثبَت في علوم العقل أنَّ كثرة الأفعال توجب حصول المَلَكات الرّاسخة، فينتقلُ الإنسانُ مِن الرَّمَد إلى أنْ يصيرَ أعشى، فإذا واظَب على تلك الحالةِ أيّامًا أخرى؛ انتقَل مِن كونه أعشَى إلى كونِه أعْمَى، فهذا ترتيبٌ حَسَنٌ موافِقٌ؛ لِما ثبَت بالبراهينِ اليقينيَّةِ[1].

وقال ابنُ عاشورٍ: "ومن بديع معنى الآية أن الله وصف حال إعراضهم عن الذِّكر بالعشا، وهو النَّظر الَّذي لا يتبيَّن شبح الشَّيء المنظور إليه، ثمَّ وصفهم هنا بالصُّمِّ العمي إشارة إلى أنَّ التَّمحُّل للضَّلال ومحاولة تأييده ينقلب بصاحبه إلى أشدِّ الضَّلال، لا أنَّ التَّخلُّق يأتي دونه الخلق والأحوال تنقلب ملكات، وهو معنى قولِ النَّبيِّ ﷺ: «لا يزالُ العبْدُ يَكْذِبُ حتَّى يُكْتَبَ عندَ اللهِ كَذّابًا»"[2].

دلالةُ العطفِ في: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: عاطفةٌ لِما بعدَها على ما قبلها من الوصف بالصَّمم والعمى، وهذا العطف "فيه معنى التَّذييل؛ لأنَّه أعمُّ من كلٍّ من الصُّمِّ والعمي باعتبار انفرادهما، وباعتبار أنَّ الصَّمم والعمى، لمّا كانا مجازين قد يكون تعلُّقهما بالمسموع والمبصر جزئيًّا في حالة خاصَّة، فكان الوصفُ بالكون في الضَّلال المبين تنبيهًا على عموم الأحوال، وهو مع ذلك ترشيحٌ للاستعارة؛ لأنَّ اجتماع الصَّمم والعمى أبينُ ضلالًا"[3].

هذا العطفُ مِن عطف المفردات

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلته:

كلمة: (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ اسمُ موصولٍ، صلتُه جملة: ﴿كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ومعنى نظْمِها صلةً أنَّ

مَـــن كـفَـر بالعظيمِ ظَهَر ضـلالُـه غـايـةَ الظُّهور

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 213.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 216، والمذكورُ قولًا لنبيّنا ﷺ: جزءٌ مِن حديثٍ في صحيح الإمام مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: قبح الكذب وحسن الصدق، وفضله، حديث رقم: 2607.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 217.

معناها عنوانٌ للموصولِ، فهو معروفٌ معلومٌ مشهورٌ به، لا يستطيعُ أحدٌ دفْعَه، فكلُّ مَن أبْصَر حالَ أهل الكفر مع ذِكْر الرَّحمن رأى أنَّ كلَّ واحدٍ منهم كمَن كانَ في ضلالٍ مُبينٍ، وهذا يُعين على تحقيقِ التَّسْليةِ والتَّخفيفِ والمدح له ﷺ، والذَّمِّ لأهل الكفر.

علَّةُ التَّعبير بالكَوْن في: ﴿كَانَ فِي ضَلَٰلٍ﴾:

دلالـــةُ الـكـونِ تـأسَّـسَ عليها الإنكارُ

عبَّر القرآنُ بمادَّة الكون في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ نفوسَ أهل الكفر قد صار مِن شأنِها قَبولُ الكفر، حتّى صار الكُفْر في طبعِها وديدنها، وهذا مِن مقتضياتِ الإنكار بالاستفهام، والتَّمثيل، ولمّا كانَ سياقُ قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص: 85] التَّبشير والإنصاف والتَّسليم لم يأتِ القرآن بكلمة الكون في قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص: 85]؛ إلماحًا إلى إمكانِ رجوعِ قومِه ﷺ مِن الكفر إلى الإيمان؛ تزامُنًا معَ رجوعه ﷺ مِن المدينة الَّتي هاجر إليها مطرودًا مخذولًا مِن قومِه في مكَّة إلى مكَّة مُنتصرًا، وبالفعل قد آمَن كثيرونَ بعدَ أن أتَى رسولُ الله مكَّة، وقد ظنّوه أخًا كريمًا وابنَ أخٍ كريمٍ، وعفا عن مَن ظلمَه، وأطلق سراحهم.

دلالةُ المُضِيِّ في: ﴿كَانَ﴾:

قد يتجرَّدُ الكون الماضي لفظًا عن الزَّمان، بقرينة لغرضٍ

كانَ الظّاهرُ أنْ يقولَ القرآن: (ومَن يكونُ في ضلال مبين)، فهُم ما زالوا كافرينَ بالله ورسوله، ولكنَّه نظَمَه فعلًا ماضيًا؛ للدَّلالة على تحقُّقِ حصولِ الكون، وللإبلاغِ في التَّيئيسِ مِن هدايتهم؛ ليسلّيَهُ ﷺ، ويُخفِّفَ عنه، كأنَّ الواحدَ منهُم قد خُتِمَ لهُ بالكَوْن في ضلالٍ مُبينٍ، بقرينةِ قوْلِه تعالى بَعْدَه: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾، ويَجوزُ أن يكونَ ذلكَ قرينةً على كَوْن الكَوْنِ الماضي مَعْناهُ: كانَ ولا يَزالُ، فهو ماضٍ لفْظًا، مُستمرٌّ معْنًى، فكونُهُم في ضلال مُبين مُستمرٌّ دائمٌ، ويؤيِّدُ هذا كونُهُم صُمًّا عُمْيًا.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالضَّلالِ في: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾:

مَن ضَلَّ عن ذِكْرِ الرَّحْمـنِ، فقد ضَلَّ الطَّريقَ إلى اللهِ

أثبَت القرآنُ لأهل الكُفْر - الذين اعترَضوا على القرآنِ، ومَن جاءَهُم به، وأعرضوا عنهما - العَشا عن ذِكْرِ الرَّحْمَن، وقيَّضَ لهُم قرينًا مِن الشَّيطانِ، ثم أثبَت لهُم الصَّمَمَ، والعَمَى، فكانَ إثباتُ الضَّلالِ لهُم، على جهة التَّمْثِيل في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ نِتاجَ حركةِ المعنَى في هذه الآياتِ، "والضَّلالُ: التِّيهُ الَّذي طُمِستْ معالِمُه، والضّالُّ فيه لا يرَى شيئًا يهتدي به؛ وإنَّما يَضْرِبُ في متاهةٍ لا يدري أين طرَفاها؟ وفي طَيِّ هذا تحذيرٌ مِن الضَّلال الذي يبدأُ بخُطْوةٍ واحدةٍ في طريقِ الخطأ، فتقودُ إلى هذا التِّيهِ المُبِينِ، وهذهِ الخُطْوةُ الواحدةُ الَّتي فتحَتْ بابَ الضَّلالِ في الجزءِ السّابق، والَّذي أفْضَى إلى أنَّه لا ينفعُهُم أنَّهُم في العذابِ مشتركون: هيَ عدمُ العنايةِ بالنَّظَر في ذِكْر الرَّحْمنِ"[1]، وقال أبو السُّعود: "واستغرقوا في الضَّلالِ؛ بحيثُ صارَ ما بهم مِن العشا عَمًى مقرونًا بالصَّمَمِ"[2].

سِرُّ تنكيرِ لفظ ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

مِثْلُ هذا الضَّلالِ لا حدَّ له

نظَم القرآنُ الضَّلال نكرةً في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ للدَّلالةِ على النَّوعيَّةِ، أي: في نوعٍ مِن الضَّلال عجيبٍ وغريبٍ، كأنَّ هذا الضَّلالَ لا يتعارَفُه النّاسُ، بقرينة قوله: ﴿مُّبِينٍ﴾، وأنَّ هذا الضَّلالَ صفةٌ لَمن هو أعشى، بل لَمن هو أصمُّ وأعْمَى، ويجوزُ أن يكونَ للتَّهويلِ، بنَفْسِ القرينة.

عِلَّةُ وصْف الضَّلال بـ﴿مُّبِينٍ﴾:

الـوَصْـفُ مِـن تمامِ بيانِ حالِ الموصوفِ

وصَف القرآنُ الضَّلالَ باسْمِ الفاعلِ: ﴿مُّبِينٍ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ للدَّلالةِ على تمامِ هذا الضَّلالِ وكمالِه

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 380.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 88.

في نفْسِه وبالنِّسْبةِ إلى غيرِه مِمّا هو في جِنْسِه، والمعنى: "بيِّن في نفْسِه أنَّه ضالٌّ، وأنَّه محيط بالضَّلال، مظهر لكلِّ أحد ذلك، فهو بحيثُ لا يخفَى على أحدٍ"[1]، وتنكيرُ الوَصْفِ: ﴿مُّبِينٍ﴾ تابِعٌ لتنكير الموصوفِ: ﴿ضَلَٰلٍ﴾.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 30.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"